ابن عطية الأندلسى ومنهجه في تفسير القرآن الكريم

الدكتور : محمد عبد السلام كامل(*)

فتح شيخ المفسرين ابن جرير الطبري [المتوفى سنة ٣١٠ هـ] الباب لظهور عدد من التفاسير التي تجمع بين الأثر والنظر، وتأخذ من الرواية والدراية ما يحقق وحدة الهدف الذي رامه أصحاب هذه التفاسير من الوقوف على فهم النص، واستثمار مكوناته.

ومن هؤلاء ابن عطية الأندلسي [المتوفى سنة ٥٤١هـ] صاحب كتاب (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) الذي حرص على أن يجمع في منهجه بين المأثور والرأي، فأكثر من ذكر الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين التي تدور حول شرح النص القرآني، وبيان مدلوله، وتوضيح معناه، وعوّل أيضا على المعارف الأخرى التي تفيد في فهم النص مثل: اللغة، والنحو، والقراءات، والفقه، وتحكيم العقل في ترجيح بعض الأقوال على بعض ... وهي صور أخرى نلمحها من تفسير المحرر الوجيز عن ابن عطية، لا سيما صورة المفسر اللغوي النحوي التي يجب أن تلتقط له كما التقطت له من قبل صورة المفسر النقلي، فهو يعرض اللفظ القرآني

(*)أستاذ الدراسات الإسلامية ورئيس قسم اللغة العربية – كلية البنات جامعة عين شمس .

عرضا عرفته العرب في معاني منطقها، كما أنه حين يعرض للآيات من الوجهة الإعرابية لا يألو جهدا في ذكر الوجوه الإعرابية التي لها علاقة بتوضيح المعنى، وأيضا يقوم بتوجيه القراءات توجيها يوظف لصالح المعنى.

فابن عطية مفسر نقلي كبير، وهو في الوقت ذاته مفسر لغوي ونحوي كبير أيضا، وقد استطاع أن يخرج لنا تفسيرا متنوع الآليات والاهتمامات في إطار ما هدف إليه وتغياه من مصنفه - شأنه شأن غيره من المفسرين المعتبرين- وهو شرح النص القرآني وتوضيح معناه قدر طاقته وتمثله للمعارف التي زود نفسه بها.

وهذا البحث يلقي الضوء على ابن عطية ومنهجه في تفسير القرآن الكريم من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: ابن عطية الأندلسى(بيئته، نشأته ونبذة من حياته، نشاطه العلمى)

المبحث الثانى : منهج ابن عطية فى تفسيره (المحرر الوجيز) .

المبحث الثالث : ما أثاره تفسير (المحرر الوجيز) من نشاط فكرى.

وبالله التوفيق

المبحث الأول ابن عطية الأندلسى

بيئته ـ نشأته ونبذة من حياته ـ نشاطه العلمى

أولاً : بيئته

فى حديثنا عن بيئة ابن عطية نحاول تلمس السبيل إلى معرفة البيئتين العلمية والسياسية اللتين أحاطتا بابن عطية .

عاش ابن عطية فى عصر المرابطين بالأندلس، فقد ولد سنة ٤٨٠ هـ، أى بعد عام واحد من موقعة الزلاقة التى انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على الجيوش النصرانية بقيادة الفونسو السادس ملك قشتالة [١].

والمرابطون قوم من المغاربة أصلهم من البربر، وأشهر قبائلهم قبيلة (لمتونة) التى تنتهى فى نسبها إلى (حمير)،وسموا بالمرابطين لأنهم التزموا فى نشأتهم الرباط جهاداً فى سبل الله ونصرة لدينه وعرفوا كذلك بالملثمين لأنهم كانوا يتخذون اللثام شعاراً لهم [٢].

وقد ظهرت دولة المرابطين فى بلاد المغرب سنة ٤٣٠ هـ وشملت جميع الأقطار المغربية من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غرباً، ومن

(١) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ، د. عبد الوهاب فايد ص ٢٤ ط .مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس للدكتورين محمد عبد الحميد الرفاعى وهاشم عبد الراضى ص ١٥٩ ، ١٦٠ ـ دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى حدود ما يسمى الآن بالنيجر ومالى والسنغال جنوباً .

وكانت فكرة الجهاد عندهم هى التى أجبرتهم على التدخل فى أحداث الأندلس، ففى سنة ٤٧٨ هـ سقطت طليطلة - إحدى إمارات الطوائف الأندلسية - فى أيدى الأسبان، وكان سقوطها ينذر بسقوط غيرها من إمارات الأندلس الأخرى، ومن هنا أخذت وفود الأندلس عقب سقوط طليطلة مباشرة تتوافد على المرابطين فى المغرب يستغيثون بهم ويطلبون حمايتهم من هؤلاء الأسبان، وقد استجاب المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين إلى صيحة استغاثة أهل الأندلس، وسارعوا إلى إنقاذهم من براثن الأسبان، وحمايتهم من الخطر الصليبى الذى يهدد وجودهم بالأندلس [٣].

وقد قضى المرابطون - إلى حد ما - على الخطر الصليبى الذى كان يُهدد المسلمين بالأندلس فى ذلك الوقت، وقضوا كذلك على حكم الطوائف بالأندلس، واستولوا على شبه جزيرة الأندلس، وقامت فى عهدهم الوحدة السياسية بين المغرب والأندلس .

وقد استمر سلطان المرابطين فى الأندلس ما يزيد على الستين عاماً فقد دخلوا الأندلس سنة ٤٧٩ هـ إبان موقعة الزلاقة، وسقطت دولتهم على يد الموحدين سنة ٥٤١ هـ .

(٣) انظر : منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٢٤ .

وقد عاصر ابن عطية هذا العهد المرابطى منذ دخوله فى الأندلس إلى نهايته ، فقد ولد سنة ٤٨٠ هـ أى بعد دخول المرابطين الأندلس بعام واحد، ومات سنة ٥٤١ هـ[٤] فى العام الذى سقطت فيه دولتهم .

فابن عطية عاصر إذن ثلاثة من أمراء المرابطين ، عاصر أولاً يوسف بن تاشفين الذى حكم دولة المرابطين حتى سنة ٥٠٠ هـ، كما عاصر على بن يوسف بن تاشفين الذى تولى الحكم بعد أبيه حتى سنة ٥٣٧ هـ، وعاصر كذلك تاشفين بن على بن يوسف الذى تولى الحكم بعد أبيه إلى أن لقى مصرعه فى الحرب بينه وبين الموحدين سنة ٥٣٩ هـ، وعاصر بن عطية فى أواخر أيامه نهاية عهد المرابطين على أيدى الموحدين [٥].

****

أما عن البيئة العلمية التى أحاطت بابن عطية فى هذا العصر المرابطى فقد كانت خصبة وفيرة إلى حد كبير؛ وقد انتشرت مدارس العلم فى سائر المدن الأندلسية، وكانت الرحلات العلمية لا تنقطع بين المشرق والمغرب .

وليس بعجيب أن يُشجع ملوك المرابطين وقادتهم العلم والعلماء، أو أن يقربوا إليهم الفقهاء، فقد قامت دولتهم كما سبق أن ذكرت على أساس

---

(٤) اختلف فى العام الذى توفى فيه ابن عطية فقيل سنة إحدى ، وقيل اثنتين وقيل ست وأربعين وخمسمائة ، وقد رجح ابن الأبار فى المعجم ص ٢٦١ أن وفاته كانت سنة ٤٨١ هـ ، وتبعه فى ذلك الدكتور عبد الوهاب فايد فى كتابه منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٢٥ .

(٥) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٢٥ ، ٢٦ .

دينى مرتبط بالجهاد فى سبيل الله، فكان من الطبيعى أن يعتمدوا على العلماء، وأن يقربوا إليهم الفقهاء الذين يلهبون حماسهم الدينى ويحركون فيهم وفى جنودهم بواعث الجهاد المقدس .

ويُشير المراكشى إلى اهتمام على بن يوسف بن تاشفين أحد أمراء المرابطين بأهل الفقه والدين وبمشاورته لهم فى شئون دولته فيقول : " واشتد إيثار على بن يوسف بن تاشفين لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كن فيما يعهد إليه ألاّ يقطع أمراً ولا يبت فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس " [6].

كما يُحدثنا المراكشى عن النهضة العلمية التى ازدهرت فى هذا العصر والتى تتشابه إلى حد كبير مع النهضة العلمية فى عصر العباسيين ، فيقول ـــ عن يوسف بن تاشفين ـــ : " فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزية من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب فرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار "[7].

هذا وقد حفلت كتب التراجم والطبقات بتراجم وافية لكثير من العلماء الذين برزوا فى عصر المرابطين فى علوم الفقه والتفسير والحديث وعلوم اللغة والنحو والتاريخ وأدب الكتابة وفن الشعر [8].

---

(6) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ص ٢٣٥ تحقيق الأستاذ / محمد سعيد العريان ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣ هـ .

(7) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

(8) يراجع فى هذا : منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم من ص ٢٧ ـــ ٣٣ .

أما الفقه قد عنى العلماء فى العصر المرابطى عناية بالغة بالفقه المالكى الذى كان أساس القضاء والفتوى ، كما اهتموا اهتماماً كبيراً بحفظ مسائله ودراسة كتبه كالموطأ والمدونة والواضحة والمستخرجة وغيرها .

ومن الفقهاء الذين ظهروا فى هذا العصر قاضى الجماعة ابن رشد الجد المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، والقاضيان أبو القاسم بن ورد التميمى المتوفى سنة ٥٤٠ هـ، وأبو بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

وأما التفسير : فقد برز فى هذا العصر القاضى ابن عطية صاحب كتاب (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) ـ موضوع دراستنا هذه ـ والقاضى أبو بكر بن أبى الأسود الغسانى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ، والقاضى أبو بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ صاحب كتاب أحكام القرآن وقانون التأويل فى تفسير القرآن .

وأما الحديث : فقد حمل لواءه فى هذا العصر إمامان من أئمته وحافظان من حفاظه هما أبو على الغسانى المتوفى سنة ٤٩٨ هـ، وأبو على الصدفى المتوفى سنة ٥١٤ هـ.

وقد تخرج على يد هذين الإمامين نخبة من المحدثين فى هذا العصر المرابطى من أمثال الحافظ أبى بكر المحاربى المتوفى سنة ٥١٣ هـ، والحافظ أبى محمد الرشاطى المتوفى سنة ٥٤٢هـ، والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ، وغيرهم .

وأما علوم اللغة والنحو فقد نبغ فيهما نخبة من علماء اللغة وأساتذة النحو من أمثال أبى محمد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ هـ، وأبى الحسن

ابن خلف الأنصارى المعروف بابن البانش المتوفى سنة ٥٢٨ هـ، وأبى الحسن بن سراج المتوفى سنة ٥٠٨هـ، وأبى عبد الله جعفر بن محمد بن مكى بن أبى طالب القيسى المتوفى سنة ٥٣٥ هـ .

وأما علم التاريخ فقد لمع فيه طائفة من الأدباء المؤرخين وأعلام الرواية المحققين ، وفى مقدمتهم أبو الحسن بن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ صاحب كتاب (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) .

ومن أعلام المؤرخين كذلك ابن شكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ صاحب كتاب (الصلة) والذى يعتبر من أوثق المصادر الأندلسية التى يعتمد عليها الباحثون .

وأما كتابة الرسائل والتى بلغت شأواً كبيراً فى عصر المرابطين فقد لمع فيها أبو بكر الكلاعى المعروف بابن القصيرة المتوفى سنة ٥٠٨ هـ والذى يُوصف بأنه حاز قصب السبق فى البلاغة والفصاحة ، كما برز فيها أيضا أبو عبد الله ابن أبى الخصال المتوفى ٥٤٠ هـ

وأما الشعر فقد راجت سوقه فى هذا العصر رواجاً عظيماً ، وقلما وُجد فى هذا العصر عالم أو فقيه لا يقول الشعر ومن شعراء هذا العصر أبو بكر المخزومى، وأبو بكر بن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ هـ والذى برع فى فن الموشحات والزجل .

كما ظهر فى ميدان الشعر فى هذا العصر المرابطى نخبة من النساء الشاعرات من أمثال نزهون الغرناطية وحفصة الركونية، وأم الهناء بنت عبد الحق بن عطية .

هذا موجز عن البيئة العلمية التى أحاطت بابن عطية، والتى كانت ـ كما رأينا ـ بيئة علمية ثرية نشطة، نشأ ابن عطية فى رحابها، وتكونت

شخصيته العلمية فى مناخها، وقد كان لهذا الأمر أثر بالغ سندركه بوضـوح عند حديثنا عن نشأته .

أما عن البيئة السياسية التى أحاطت بابن عطية فـى هـذا العصـر المرابطى، فقد كانت تتسم بثلاثة ظواهر .

الظاهرة الأولى : هى أنهم كانوا طوال عهدهم بالأندلس – والـذى استمر ما يزيد على الستين عاما – فى جهاد متصل ضد الأسبان، وتمكنـوا طوال هذه الفترة من الحفاظ على الوجود الإسلامى وقلموا أظافر القشـتاليين والأرجونيين، وحققوا عديدا من الانتصارات البارزة مثل انتصار إقليش سنة ٥١٩ هـ، وواجهوا غزوة عاتية من ألفونسو المحارب ملك أراجـون سـنة ٥١٩ هـ تمكن فيها من الإيقاع بالمسلمين، لكنه عنـدما حـاول أن يكـرر غزوته سنة ٥٢٨ هـ منى بالهزيمة الفادحة، ودفع حياته ثمنا لتطاوله فـى موقعة (أفراغة) [٩].

والظاهرة الثانية : هى أنهم كانوا يقربون إليهم الفقهاء، ويحترمونهم كل الاحترام ويُشاورنهم فى جميع أمورهم، ويولونهم مناصب الفتيا والقضاء.

لقد قامت دولة المرابطين – أول ما قامت فى المغرب – على أساس دينى، ووضع أسس قيامها فقيه كبير هو عبد الله بن ياسين الجزولى المتوفى سنة ٤٥١ هـ والذى يعتبر بحق إمام المرابطين الدينى وزعيمهم الروحـى،

---

(٩) تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

ومن ثم فليس بمستغرب أن يحتل الفقهاء هذه المكانة المرموقة في دولة المرابطين .

يضاف إلى ذلك أن فقهاء الأندلس كانت لهم جهود خاصة في تثبيت حكم المرابطين بالأندلس وإضفاء ثوب الشرعية عليه وذلك أنهم هم الذين أفتوا يوسف بن تاشفين ــ بعد انتصاره على النصارى الأسبان في موقعة الزلاقة ــ بجواز خلع ملوك الطوائف وانتزاع الأمر من أيديهم وقتالهم إذا امتنعوا عن ذلك (١٠).

وكان من مظاهر نفوذ الفقهاء وشمول سلطانهم وعظم جاههم في دولة المرابطين أنهم كانوا أرباب القضاء والفتوى والخطابة والإمامة في الصلاة، وهي مناصب لها شأنها في المجتمع الأندلسي .

أما الظاهرة الثالثة : فهي أن دولة المرابطين في الأندلس لم تعمر طويلاً، فسرعان ما اختلت هذه الدولة،واضطرب أمرها، وانفرط عقدها، وقامت ضدها الثورات الأندلسية في كل مكان .

وقد كان لقيام الثورات في الأندلس على المرابطين سببان بارزان :

السبب الأول : أن المرابطين فقدوا هيبتهم العسكرية في الأندلس، وعد الهزائم المتكررة والمتلاحقة التي تلقوها على أيدي النصارى الأسبان، مما جعل أهل الأندلس يفكرون في الخلاص منهم، لاسيما أنهم قد أصبحوا غير قادرين على حماية الأندلس، والدفاع عنها ضد الأعداء .

---

(١٠) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ / أحمد بن محمد المقري التلمساني ــ تحقيق د. إحسان عباس ــ ٤/٤٦١ ــ ط بيروت ١٣٨٨ هـ .

والسبب الآخر : هو نجاح الدعوة المهدية فى المغرب، وقيام محمد بن تومرت الملقب بالمهدى وإعلانه الثورة على المرابطين، والصراع الذى بدأ يحتدم — آنذاك — فى بلاد المغرب بين المرابطين والموحدين بقيادة ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن على، فكان لهذا أعظم الأثر فى إشعال الثورة على المرابطين فى الأندلس تجاوباً لما حدث فى المغرب (١١).

ثانياً : نشأته ونبذة من حياته

فى عصر المرابطين بالأندلس الذى تحدثنا عنه فيما مضى ولد بغرناطة القاضى أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرءوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية المحاربى الداخل سنة ٤٨٠ هـ(١٢)من أسرة كريمة جمعت بين عراقة الأصل ووجاهة العلم، واشتهر كثير من أفرادها بالفقه والحديث والأدب، وقد وصف أحد المؤرخين رجال هذه الأسرة بأنهم أعيان غرناطة (١٣).

ويحدثنا الفتح بن خاقان عن أصالة هذه الأسرة وكرم محتدها وطيب عنصرها، فيقول :" بيئة كريمة، وأرومة من الشرف غير مرومة، لم يزل

---

(١١) يراجع فى هذا : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس — محمد عبد الله عنان ٣١٨/١ وما بعدها . ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الأولى — ١٣٨١ هـ .

(١٢) انظر : ترجمته فى : الصلة لابن بشكوال ٣٨٦/٢ — الدار المصرية للتأليف والنشر بالقاهرة ١٩٦٦م ، وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبى، ص ٣٨٩،دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م وسير أعلام النبلاء للذهبى ٥٨٧/١٩ — ط.دار الفكر ، ونفح الطيب ٦٧٩/١،ومعجم ابن الأبار ص ٢٦٩ —٢٧٣ .

(١٣) نفح الطيب ٢٩٢/١ .

فيها على وجه الزمان أعلام علم وأرباب مجد ضخم، قد قيدت مآثرهم الكتب، وأطلعتهم التواريخ كالشهب [١٤].

وقد تحدث عن هذا النسب الزكى طائفة من المؤرخين أمثال ابن فرحون فى الديباج المذهب، وابن الأبار فى المعجم، والنباهى فى تاريخ قضاة الأندلس وغيرهم [١٥].

لقد ورث القاضى عبد الحق بن عطية عن هذه الأسرة ما كان لها من مواهب فكرية وخصائص علمية، فلاحت عليه ــ منذ نعومة أظافره ــ أمارات النبوغ ومخايل الذكاء، واندفع في شبيبته يطلب العلم بكل جد ونشاط مترسما خطى آبائه وناسجاً على منوال أجداده ، وقد كان لوالده أبى بكر غالب بن عطية والذى يصفه المؤرخون بأنه كان محدثا كبيرا وأديبا قديرا وشاعرا مجيدا ــ عظيم الفضل فى توجيهه توجيها علميا سديدا ، وفى دفعه إلى معالى الأمور بروح الجد والمثابرة .

وهكذا نشأ ابن عطية عريق الأصل، كريم المحتد، ذكى الفهم،يطلب العلم بكل جد، ويمتطي صهوة المجد .

****

وإذا كان للوراثة والبيئة كبير الأثر فى حياة الإنسان وتكوين شخصيته، فإن الوراثة ــ كما هو ظاهر ــ قد أثرت فى نبوغ ابن عطية وذكائه ونضج عقليته واتساع ثقافته .

---

(١٤) قلائد العقيان فى محاسن الأعيان ص ٢١٦ ــ مطبعة التقدم العلمية .

(١٥) انظر : الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ٥٧/٢ ــ ط. دار التراث للطباعة والنشر بالقاهرة، ومعجم ابن الأبار ص٢٥٩،وتاريخ قضاة الأندلس ص١٠٩ ط. المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت.

أما بيئته العلمية والسياسية والتى تحدثنا عنها فى صدر هذا الفصل، وأبنا أنها كانت بيئة علمية ثرية نشطة، ساعدت على تكوين شخصية ابن عطية العلمية فإننا نضيف إلى ما ذكرناه هناك أن ابن عطية فى مقتبل عمره كان يرى الناس يغدون ويروحون إلى رحاب والده غالب بن عطية فى غرناطة يقرأون عليه، ويسمعون منه، يسألونه لأنفسهم الإجازات العلمية فى رواية كتب الحديث وغيرها، فتأثر ابن عطية بهذا المناخ العلمى الذى يحيط به ودفعه ذلك إلى الجد فى طلب العلم والتعلق بأسباب بالمعرفة .

يضاف إلى ذلك أن عبد الحق بن عطية كان منذ صغره طموحاً متطلعاً وقد لازمه هذا الطموح حتّى برزت مواهبه وعم إنتاجه وغدا شخصية علمية يشار إليها بالبنان فكان كما وصفه الفتح بن خاقان "سابق الأمجاد، فاستولى على الأمد بغلابه، ولم ينض ثوب شبابه، أدمن التعب فى السؤدد جاهدا،حتى تناول الكواكب قاعدا [16]"معنى وفصلا، وحواها فرعا وأصلا "[17].

وكان من الطبيعى أن يتجه ابن عطية فى سبيل طلب العلم أول ما يتجه إلى ساحة والده لإشباع هذا الطموح الذى تمكن من نفسه وسيطر على جوارحه، فقرأ عليه كتب الحديث والتفسير والفقه واللغة والأدب والتاريخ.

---

(١٦) قلائد العقيان ص ٢١٧ .

(١٧) نفح الطيب ٢ /٥٢٨ .

كما أخذ الحديث عن الحافظ أبى على الحسين بن محمد الغسانى المتوفى سنة ٤٩٨ هـ وهو أحد من انتهت إليهم رئاسة الحديث فى الأندلس، والحافظ أبى على الحسين بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٥١٤ هـ وأخذ العربية من الإمام أبى الحسن بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن الباذش المتوفى سنة ٥٢٨ هـ، وكان شيخ العربية والقراءة فى عصره .

وأما الفقه فقد أخذه عن أبى محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب القرطبى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، وعن الفقيه أبى بحر سفيان بن العاص بن أحمد الأسدى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، وعن الفقيه أبى عبد الله محمد بن على بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى المتوفى سنة ٥٠٨ هـ وغيرهم [١٨].

أما رحلاته العلمية فقد اقتصرت على حواضر الأندلس ومراكز العلم فيها .

أما الرحلة العلمية خارج الأندلس، فإن المؤرخين الذين ترجموا لحياته لم يشيروا إلى ذلك من قريب ولا بعيد، مع أن هذه الرحلة وخاصة إلى المشرق كانت محل عناية هؤلاء المؤرخين لما لها من أثر فى الثقافة والعلوم فى الأندلس .

ولعل السبب فى أن ابن عطية لم يرتحل إلى المشرق ـ كما يقول الدكتور عبد الوهاب فايد ـ هو أن عصره كان عصر جهاد وحرب ، وأن الأندلس كانت فى ذلك الوقت مهددة بالسقوط فى أيدى الأسبان، فآثر ابن

---

(١٨) الديباج المذهب لابن فرحون ٥٧/٢ .

عطية أن يرابط فى الأندلس ولا يغادرها حتى يشارك فى الجهاد والدفاع عن الأندلس [١٩].

أما عن علاقة ابن عطية بالمرابطين فى الأندلس،فقد اتصل بهم اتصالا وثيقا، واشترك معهم فى أعمال الجهاد ضد الأعداء ،وولاه المرابطون منصب القضاء .

ويبدو أن ابن عطية ــ فى مقتبل عمره ــ لم يكن على صلة طيبة بالمرابطين، ولذلك نالته منهم فى شبيبته ــ كما يقول ابن الأبار ــ إهانة لإفراط حدته ومنافسته الحكام، وغرب أبوه (غالب) ــ إذ ذاك ــ إلى (السوس) ثم أعيد إلى وطنه (غرناطة)، وحسن رأيهما فى دولة المرابطين[٢٠]، ثم ما لبث ابن عطية بعد ذلك أن توطدت صلته بالمرابطين ثم ما لبث ابن عطية بعد ذلك أن توطدت صلته بالمرابطين وتوثقت علاقته بهم.

ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان يراهم حماة الأندلس، والمدافعين عنها ضد الأعداء ،ومن أجل ذلك انضم إلى جيوشهم للجهاد فى سبيل الله، والدفاع عن الأندلس، وتولى فى عهدهم منصب القضاء بمدينة (المرية) سنة ٥٢٩ ، وهو من أخطر المناصب وأعظمها نفوذا فى دولة المرابطين [٢١].

---

(١٩) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن لكريم ص ٦٦

(٢٠) المعجم فى أصحاب أبى على الصدق لابن الأبار ص ٢٦٠ .

(٢١) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٦٧

ثالثاً : نشاطه العلمى

أفرغ ابن عطية شطراً من حياته للعلم والتأليف،ذلك لأنه منذ أول الأمر كان ثرى الهمة فى طلب العلم وتحصيله، حتى إنه أصبح فى يوم من الأيام ـ وهو لا يزال بعد صغيراً ـ إماماً من كبار أئمة الأندلس الموجودين، ورجلا من رجالاتها المعدودين، وعلماً من أعلامها المبرزين .

وقد كون ابن عطية مدرسة علمية ينشر فيها علمه ويبث تعاليمه، تلمذ له فيها جماعة أشهرهم : الحافظ أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلى المتوفى سنة ٥٧٥ هـ والحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى المعروف بابن حبيش والمتوفى سنة ٥٨٤ هـ، والفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن أبى جمرة المرسى المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ، والنحوى أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخمى القرطبى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ ، والفيلسوف أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى المتوفى سنة ٥٨١ هـ [٢٢].

هذا وقد تتلمذ على ابن عطية خلق كثير غير هؤلاء ، وبالجملة فقد كان ابن عطية صاحب مدرسة علمية،يرحل إليها التلاميذ من كل مكان، وقد انتفع بعلمه خلق كثير فى غرناطة والمرية وفى غيرهما من البلاد الأندلسية.

****

هذا عن تلاميذه، أما عن آثاره فى مجال التأليف فقد ألف ابن عطية كتاب التفسير الذى اشتهر فيما بعد باسم (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) .

---

(٢٢) انظر : منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٨٩ ـ ٩١ .

ويرى الدكتور عبد الوهاب فايد مع جمع من المؤرخين أن ابن عطية لم يضع لتفسيره اسماً خاصاً به ، فقد ذكر ابن عميرة الضبى المتوفى سنة ٥٩٩ هـ أن ابن عطية ألف فى التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كل ما تقدم، ولم يذكر اسم هذا التفسير الذى اشتهر به [٢٣].

وذكر أيضا لسان الدين بن الخطيب — وهو من علماء القرن الثامن الهجرى — أن ابن عطية ألف كتاباً فى التفسير يُسمى بالوجيز ، فأحسن فيه وأبدع، وطار — لحسن نيته — كل مطار [٢٤].

وأما من أطلق عليه اسمه المعروف الآن وهو (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) فهو ملا كاتب جلبى المتوفى سنة ١٦٧ هـ، ولعله أخذه من معنى كلام ابن عطية فى مقدمة تفسيره حيث يقول وقصده فيه — أى فى التفسير — أن يكون جامعا وجيزا محررا " [٢٥] .

وقد بدأ ابن عطية فى وضع هذا التفسير فى وقت مبكر من حياته كما يذكر صاحب كتاب بغية الملتمس [٢٦].

أما الباعث له على تأليف هذا التفسير فهو التقرب إلى الله تعالى ، وقد ذكر ابن عطية فى مقدمة تفسيره هذا الباعث فقال : " فلما أردت أن

([٢٣]) بغية الملتمس ص ٣٧٦ .

([٢٤]) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ٥٣٩/٣ تحقيق محمد عبد الله عنان — مكتبة الخانجى بالقاهرة

([٢٥])منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٨٢ ، وانظر مقدمة ابن عطية فى تفسيره المحرر الوجيز ٣٤/١ ط.دار الكتب العلمية ، بيروت — لبنان ، الطبعة الولى ١٤١٣ هـ — ١٩٩٣ .

([٢٦]) بغية الملتمس ص ٤٢٧ .

أختار لنفسي، وأنظر في علم أعدت أنواره لظلم رمسي، سيرتها بالتنويع والتقسيم،وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم فوجدت أمتنها حبالا وأرسخها جبالا ، وأجملها آثارا، وأسطعها أنوارا،علم كتاب الله جلت قدرته وتقدست أسماؤه ،الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذى استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، هو العلم الذى جعل للشرع قواما، واستعمل سائر المعارف خداما، منه تأخذ مبادئها، به تعتبر نواشئها، فما وافقه منها نصع، وما خالفه رفض ودفع، فهو عنصرها النمير ، وسراجها الوهاج ، وقمرها المنير .

وأيقنت أنه أعظم العلوم تقريبا إلى الله تعالى، وتخليصا للنيات، ونهيا عن الباطل، وحضا على الصالحات، إذ ليس من علوم الدنيا،فيختل حامله من منازلها صيدا، ويمشي في التلطف لها رويدا . ورجوت أن الله تعالى يحرم على النار فكرا عمرته أكثر عمره معانيه، ولسانا مرنا على آياته ومثانيه، ونفسا ميزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت سوامها في ميادينه ومغانيه ، فثنيت إليه عنان النظر، وأقطعته جانب الفكر، وجعلته فائدة العمر [٢٧].

ومن هذا ندرك أن الباعث لابن عطية على تأليف هذا لتفسير باعث ديني بحت .

أما عن المصادر التي رجع إليها ابن عطية في تفسيره فهي مصادر كثيرة ومتنوعة [٢٨]:

---

(٢٧) مقدمة ابن عطية في تفسير المحرر الوجيز ص ٣٤ .

(٢٨) يراجع في هذا : منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم من ص ٩٥ — ١٢٧ .

فمن أهم المصادر التى أفاد منها فى التفسير :

(١) جامع البيان فى التفسير لشيخ المفسرين الإمام الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ، ولم يكن موقف ابن عطية من الطبرى موقف المتأثر دائما الذى ينقل أقوال الطبرى ويوافقه فى جميع آرائه، بل كان كثيرا ما يخالف الطبرى ويناقش أقواله، وينقد أراءه، وهنا تتجلى شخصية ابن عطية العلمية فى نظر الباحثين .

(٢) تفسير أبى بكر النقاش المتوفى سنة ٣٥١ هـ المسمى بـ (شفاء الصدور) وكان ينقل عنه على حذر وخيفة لضعف مروياته.

(٣) تفسير أبى العباس المهدوى المسمى بـ (التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل)، وكان موقف ابن عطية من هذا المصدر أننا نجده أحياناً يستشهد بكلام المهدوى دون أن يعقب عليه وكأنه بذلك يشير إلى أن كلامه محتمل فى معنى الآية وفى كثير من الأحيان ينقل كلام المهدوى فى الآية ثم يردفه بالتعقيب عليه .

(٤) تفسير مكى بن أبى طالب القيسى المتوفى سنة ٤٣٧ هـ والمسمى بـ (الهداية إلى بلوغ النهاية) وكان موقف ابن عطية من هذا التفسير متشابهاً إلى حد كبير مع موقفه من تفسير المهدوى .

أما أهم المصادر التى أفاد منها فى الحديث فهى : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن الترمذى وسنن النسائى .

أما مصادر ابن عطية فى مجال القراءات فهى كثيرة، ولعل أبرزها ثلاثة مصادر هى :

١- الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى المتوفى ٣٧٧ هـ وهو كتاب جليل فى توجيه القراءات السبع ، وقد أفاد منه ابن عطية كثيرا، واعتمد عليه اعتمادا كبيرا، وبدت شخصيته الناقدة وعقليته الفاحصة فى مناقشاته لأبى على الفارسى .

٢- المحتسب لأبى الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ، وقد أكثر النقل عنه فى توجيه القراءات الشاذة .

٣- مؤلفات أبى عمرو الدانى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ مثل كتاب التيسير وكتاب جامع البيان فى القراءات السبع وكتاب المحتوى على الشاذ من القراءات وغيرها .

ومن المصادر التى أفاد منها فى اللغة والنحو فهى معانى القرآن للفراء ، ومعانى القرآن للزجاج ، والإغفال فيما أغفله الزجاج من المعانى لأبى على الفارسى، ومجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى، والكتاب لسيبويه، والمقتضب للمبرد، والعين للخليل بن أحمد، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والفصيح لأبى العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب، والمجمل لأحمد بن فارس ، والمخصص لابن سيده .

أما كتب الفقه، فلأن ابن عطية مالكى المذهب شأنه فى ذلك شأن أكثر علماء الأندلس، فقد استمد المادة الفقهية فى تفسيره من أمهات كتب المذهب المالكى كالموطأ للإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ، والمختصر لعبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ، والمدونة لسحنون بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، والواضحة لعبد الملك بن حبيب الأندلسى المتوفى سنة ٢٣٨ هـ، والتفريع لأبى القاسم بن الجلاب المتوفى سنة ٣٧٨هـ، كما أفاد من كتاب الإشراف على مذاهب أهل العلم فى الاجتماع

والاختلاف لأبى بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣٠٩ هـ، وهو كتاب فى الفقه المقارن، وقد أفاد منه ابن عطية فى بيان المذاهب الفقهية المختلفة .

هذه هى هم المصادر التى على أساسها وضع ابن عطية منهجه فى التفسير .

****

على أننا نتساءل : هل كان لابن عطية مؤلفات أخرى غير هذا التفسير ؟

يجيبنا الدكتور عبد الوهاب فايد على هذا التساؤل بقوله : " إن لابن عطية مؤلفات أخرى غير التفسير، وإن كانت قليلة، ولعلها تكون قد فقدت أو أحرقت فى النكبات المتلاحقة التى أصابت المسلمين فى الأندلس إبان سقوط دولتهم ، ويستدل على ما ذهب إليه بما ورد فى كتب المؤرخين بخصوص هذا الشأن [٢٩].

وقد انتهى إلينا من مؤلفات ابن عطية غير التفسير : فهرسته الملحوظة بمكتبة (الأسكوريال) تحت رقم ١٧٣٣، وقد صورتها دار الكتب المصرية وتوجد هذه الصورة بقسم المخطوطات بالدار تحت رقم (٢٦٤٩١) ب، وتقع فى ٥٧ لوحة، وقد كتب ابن عطية هذه الفهرسة سنة ٥٣٣ هـ، وذلك فى أخريات حياته، وهذه الفهرسة على صغرها تعتبر من الناحية

---

[٢٩] المرجع السابق ص ٨٥ .

العلمية ذات قيمة كبيرة، فهى سجل واف وكامل فى موضوعه، وتاريخ علمى حافل لهذه الفترة التى عاش فيها ابن عطية .

وقد كان ابن عطية فى تأليفه لهذه الفهرسة يسير على سنة العلماء والمحدثين فى هذا الشأن .

****

تلك هى سمات النشاط العلمى الذى حفلت به حياة ابن عطية،غير أنه يتصدرها جميعا مؤلفة فى التفسير (المحرر الوجيز) فهو الذى أودعه خلاصة علمه ولب معارفه، فهيا بنا إلى التعرف على منهجه فيه .

المبحث الثانى : منهج ابن عطية فى تفسيره (المحرر الوجيز)

يقوم منهج ابن عطية فى تفسيره على ما يأتى :

<u>أولاً : جمعه فى تفسيره بين المأثور والرأى :</u>

إن أول ما يلفت النظر فى تفسير ابن عطية أنه تفسير جمع فى منهجه بين المأثور والرأى .

أما بالنسبة للمأثور، فقد ظهر ذلك واضحاً فى مجالين كبيرين :

المجال الأول : ما ورد فى تفسير ابن عطية من الأحاديث النبوية :

وفى هذا المجال يذكر ابن عطية فى تفسيره كثيراً من أحاديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ التى تدور حول شرح النص القرآنى، وبيان مدلوله، وتوضيح معناه .

وكان منهج ابن عطية فى ذكر الأحاديث النبوية ــ كما يذكر الدكتور عبد الوهاب فايد ــ أنه لا يلتزم دائماً تخريج هذه الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها من مصنفات الحديث، بل نجده أحياناً يخرج الأحاديث ويذكر رواتها، ونجده كذلك فى كثير من الأحيان يذكر الأحاديث دون تخريج لها أو

ذكر لرواتها، فيقول مثلاً : وفى الحديث كذا، أو روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال كذا، ونجده كذلك لا يلتزم ذكر الصحيح من الأحاديث، بل كان إلى جانب ما أورده فى تفسيره من الأحاديث الصحيحة يذكر فى بعض الأحيان أحاديث فى غاية الضعف والوضع (٣٠).

فمن الأحاديث التى قام ابن عطية بنسبتها إلى مصادرها من مصنفات الحديث : ما ذكره عند تفسير قوله تعالى " وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى "(٣١)، حيث يقول ابن عطية " وقال النبى ـ ﷺ فى كتاب مسلم الكمأة مما من الله به على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " (٣٢).

ومن الأحاديث التى ذكرها ابن عطية فى تفسيره دون تخريج لها أو ذكر لرواتها : ما جاء فى تفسير قوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم "(٣٣)، حيث يقول ابن عطية :" واختلف الناس فى المخاطب بهذه الآية . فقالت فرقة من المتأولين : خوطب بهذا أهل الكتاب، فالمعنى : يا أيها الذين أمنوا بعيسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد .

---

(٣٠) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ١٣١ .

(٣١) سورة البقرة : آية ٥٧ .

(٣٢) تفسير ابن عطية ١٤٨/١، والحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الأشربة ـ باب فضل الكمأة ومداواة العين بها ١٦٢٠/٣ حديث رقم (١٥٩) عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، والكمأة : نبات، ويقال له أيضا : شحم الأرض، يوجد فى الربيع تحت الأرض، وهو أصل مستدير كالقلقاس ، لا ساق له ولا عرق، لونه يميل إلى الغبرة .. راجع لسان العرب ٣٩٢٦/٥ مادة (كمأ) ط. دار المعارف بالقاهرة .

(٣٣) سورة الحديد : آية ١٨ .

ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ " ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين :رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى .. الحديث" [٣٤].

ومن الأحاديث التى ذكرها ابن عطية فى تفسيره وهى شديدة الضعف والنكارة ما جاء فى تفسير قوله تعالى "الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم " [٣٥] حيث يقول ابن عطية :" وروى أبو هريرة قال . سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى على المنبر، قال : " وقع فى نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه؟ فأرسل الله إليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما، قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ، فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومه فاصطفقت فانكسرت القارورتان"، قال : ضرب الله مثلا أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض "[٣٦].

والحق أن هذا الحديث شديد الضعف والنكارة، ومن ثم يقول القرطبى عنه : " ولا يصح هذا الحديث،ضعّفه غير واحد منهم البيهقى "[٣٧].

ووصفه ابن كثير بأنه حديث غريب جداً، وهو من الإسرائيليات [٣٨].كما وصفه الحافظ الذهبى بأنه منكر [٣٩].

---

(٣٤) تفسير ابن عطية ٢٧١/٥ والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب العلم ـ باب تعليم الرجل أمته وأهله ٢٩/١ـ ط. دار إحياء الكتب العربية .

(٣٥) سورة البقرة / آية ٢٥٥ .

(٣٦) تفسير ابن عطية ٣٤٠،٣٤١/١ .

(٣٧)تفسير القرطبى ١١٩٦،١١٩٧/٢ ط. دار الغد العربى .

(٣٨) تفسير ابن كثير ٣٠٨/١ ط . دار إحياء الكتب العربية .

(٣٩) ميزان الاعتدال للذهبى ٢٧٦/١ ط . عيسى الحلبى ١٩٦٣ .

ولا جدال فى أن ورود مثل هذه الأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة فى تفسير ابن عطية دون أن ينبه عليها أمر يؤخذ عليه .

المجال الثانى : ما ورد فى تفسير ابن عطية من أقوال الصحابة والتابعين :

عُنى ابن عطية عناية كبيرة بما ورد عن الصحابة والتابعين فى تفسير القرآن الكريم، فنقل فى تفسيره كثيراً من أقوالهم وآرائهم، وكان من أبرز الصحابة الذين نقل ابن عطية أقوالهم فى تفسيره : على بن أبى طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت .

كما كان على رأس التابعين الذين اهتم ابن عطية بتلخيص أقوالهم وتوجيه آرائهم فى التفسير : الحسن البصرى، ومجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، والسدى، وقتادة، وعكرمة، وأبو العالية، والضحاك بن مزاحم [٤٠].

ومن أمثلة ما ورد فى تفسير ابن عطية من أقوال الصحابة والتابعين ما جاء فى تفسيره لقوله تعالى : " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين "[٤١].

---

(٤٠) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ١٣٦ .

(٤١) سورة آل عمران / آية ٩٧ .

قال : وقوله تعالى " ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين " قال ابن عباس : المعنى من زعم أن الحج ليس بفرض عليه، وقال مثله الضحاك وعطاء وعمران القطان والحسن ومجاهد، وروى عن النبى عليه السلام أنه قرأ الآية، فقال له رجل من هذيل : يا رسول الله من تركه كفر، فقال له النبى ﷺ من تركه لا يخاف عقوبته ، ومن حجه لا يرجو ثوابه فهو ذلك ، وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضا ، وهذا أو الذى قبله يرجع إلى كفر الجحد والخروج عن الملة ، وقال ابن عمر وجماعة من العلماء : معنى الآية ؛ من كفر بالله واليوم الآخر، وهذا قريب من الأول، وقال ابن زيد : معنى الآية من كفر بهذه الآيات التى فى البيت، وقال السدى وجماعة من أهل العلم : معنى الآية : ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحج ، قال السدى : من كان بهذه الحال فهو كافر [٤٢].

****

وأما بالنسبة للرأى فى تفسير ابن عطية، فلم يكن رأياً مطلقاً، بل كان رأياً مقيداً بدائرة المأثور.

وكان منهجه بالنسبة للتفسير بالرأى يقوم على ما يلى :

١- كان ابن عطية يرى أن لفظ القرآن يحتمل وجوهاً كثيرة من المعانى، ولعله أشار إلى ذلك فى مقدمة تفسيره، حيث يروى لنا حديثا عن رسول الله ﷺ فيقول : " قال النبى ﷺ لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة " [٤٣].

([٤٢])تفسير ابن عطية ١ / ٤٨٠.

([٤٣]) تفسير ابن عطية ٤٠/١.

لذلك كان ابن عطية يكثر فى تفسيره من ذكر الاحتمالات التى يمكن حمل الآية عليها، كما كان يكثر من ذكر أقوال المفسرين ، ثم يتركها دون تعقيب عليها، إشارة إلى أن هذه الأقوال محتملة عنده فى معنى الآية، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى " واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لا كبيرة إلا على الخاشعين " (٤٤) يذكر ابن عطية جملة من الأقوال فى هذه الآية دون أن يعقب عليها، فيقول : " وقوله تعالى : " واستعينوا بالصبر والصلاة " قال مقاتل :" معناه على طلب الآخرة " ، وقال غيره : المعنى استعينوا بالصبر عن الطاعات وعن الشهوات على نيل رضوان الله، وبالصلاة على نيل الرضوان وحط الذنوب، وعلى مصائب الدهر أيضاً، ومنه الحديث :كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر فزع إلى الصلاة (٤٥)، ومنه ما روى أن عبد الله بن عباس نعى إليه أخوه قثم، وهو فى سفر، فاسترجع وتنحى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحلته، وهو يقرأ " واستعينوا بالصبر والصلاة "، وقال مجاهد : الصبر فى هذه الآية الصوم، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر لتناسبهما فى أن الصيام يمنع الشهوات ويزهد فى الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخشع، ويقرأ فيها القرآن الذى يذكر بالآخرة، وقال قوم : " الصبر" على بابه، " والصلاة الدعاء، وتجئ هذه الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى:" إذا

---

(٤٤) سورة البقرة / آية ٤٥ .

(٤٥) مسند أحمد ٣٨٨/٥ عن حذيفة بن اليمان .

لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله "[٤٦] لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء " [٤٧].

٢- وكان ابن عطية ــ أحيانا ــ يذكر الأقوال المختلفة فى تفسير الآية، ثم يحاول التوفيق بينها، وذلك إما بإرجاعها إلى معنى واحد للإشارة إلى أن الاختلاف بينها اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، وإما ببيان أن هذه الأقوال تندرج تحت عموم الآية، وأنها ذكرت على سبيل المثال، والآية تحتمل هذه الأقوال وتحتمل غيرها.

فمن النوع الأول : ما ذكره ابن عطية فى تفسير قوله تعالى " فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم "[٤٨] حيث يقول : " والعروة فى الأجرام هى موضع الإمساك وشد الأيدى، واستمسك معناه قبض وشد بيديه، والوثقى فعلى من الوثاقة، وهذه الآية تشبيه، واختلفت عبارة المفسرين فى الشئ المشبه بالعروة، فقال مجاهد : العروة : الإيمان ، وقال السدى : الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك : العروة : لا إله إلا الله .

وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد " [٤٩].

ومن النوع الثانى : ما ذكره ابن عطية فى تفسير معنى الطاغوت الوارد فى الآية السابقة حيث يقول : " واختلف المفسرون فى معنى الطاغوت فقال عمر بن الخطاب، ومجاهد والشعبى، والضحاك، وقتادة، والسدى :

---

(٤٦) سورة الأنفال / آية ٤٥.

(٤٧) تفسير ابن عطية ١٣٧/١ .

(٤٨) سورة البقرة / آية ٢٥٦ .

(٤٩) تفسير ابن عطية ٣٤٤/١.

الطاغوت : الشيطان، وقال ابن سيرين وأبو العالية : الطاغوت : الساحر ، وقال سعيد بن جبير وجابر بن عبد الله وابن جريج : الطاغوت : الكاهن .

وَبَيِّنٌ أن هذه أمثلة فى الطاغوت؛ لأن كل واحد منها له طغيان، والشيطان أصل ذلك كله، وقال قوم : الطاغوت : الأصنام ، وقال بعض العلماء : كل ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت .

وهذه تسمية صحيحة فى كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما ما لا يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام وما لا يعقل كالأوثان فسميت طاغوتا فى حق العبدة، وذلك مجاز، إذ هى بسبب الطاغوت الذى يأمر بذلك ويُحسنه، وهو الشيطان "[٥٠].

٣- وعندما يرجح ابن عطية بين الأقوال المختلفة فى تفسير الآية، فإن أسس الترجيح عنده تعتمد فى الغالب على ما يأتى :

أ- اللغة : فقد كان ابن عطية فى بعض المواطن من تفسيره يرجح بعض الأقوال أو يخطئ بعضها بناء على أساس لغوى، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى " وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها "[٥١] يرجح ابن عطية أن المراد بـ (الفوم) فى الآية الحنطة مستدلاً على ذلك باللغة فيقول : " وقال ابن عباس وأكثر المفسرين : الفوم، الحنطة،

---

(٥٠) تفسير ابن عطية ٣٤٤/١

(٥١) سورة البقرة / آية ٦١ .

وقال مجاهد: الفوم : الخبز ، وقال عطاء وقتادة : الفوم : جميع الحبوب التي يمكن أن تختبز كالحنطة والفوم والعدس ونحوه، وقال الضحاك : الفوم ، الثوم، وهي قراءة عبد الله بن مسعود بالثاء، وروى ذلك عن ابن عباس، والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغاثير ومغافير، وحدث وجدف، ووقعوا في عاثورشروعافورشر، على أن البدل لا يقاس عليه، والأول أصح أنها الحنطة، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح :

قد كنت أغنى الناس شخصا واجدا		ورد المدينة عن زراعة فوم

يعني حنطة .

قال ابن دريد : الفوم : الزرع أو الحنطة [52].

ب- الحديث : فقد كان ابن عطية في بعض المواطن من تفسيره يرجح بعض الأقوال على بعض مستدلا بالحديث النبوي الشريف، فمثلا عند تفسير قوله تعالى "وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس "[53] يذكر ابن عطية أن الأصح في تفسير روح القدس هو جبريل – عليه السلام ثم يدعم ترجيحه بالاستدلال بالحديث النبوي ، فيقول " وقال ابن عباس روح القدس هو الاسم الذي به كان يحيي الموتى، وقال ابن زيد : هو الإنجيل كما سمى الله تعالى القرآن روحاً وقال السدى والضحاك والربيع وقتادة : روح القدس جبريل – عليه السلام – ، وهذا أصح الأقوال ، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت "

---

(52) تفسير ابن عطية ١٥٣/١ .

(53)سورة البقرة / آية ٨٧ .

اهج قريشا وروح القدس معك "[٥٤] ومرة قال له " وجبريل معك "، وقال الربيع ومجاهد : القدس : اسم من أسماء الله تعالى كالقدوس، والإضافة على هذا إضافة الملك إلى المالك ، وتوجهت لما كان جبريل – عليه السلام – من عباد الله تعالى، وقيل : القدس الطهارة، وقيل : القدس : البركة "[٥٥] .

ج–العقل : فقد كان ابن عطية في بعض الأحيان يحكم عقله في ترجيح بعض الأقوال على بعض ، فمثلا عن تفسير قوله تعالى " الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها "[٥٦] يرجح ابن عطية أن السماوات لا عمد لها ، ويستدل على ذلك بالدليل العقلي ، فيقول : " والضمير في قوله (ترونها) قالت فرقة : هو عائد على (السماوات)، فـ (ترونها) على هذا في موضع الحال، وقال جمهور الناس : لا عمد للسماوات البتة، وقالت فرقة الضمير عائد على العمد، فـ (ترونها) على هذا صفة للعمد، وقالت هذه الفرقة للسماوات عمد غير مرئية، قاله مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس : وما يدريك أنها بعمد لا ترى ؟ وحكى بعضهم : أن العُمد جبل قاف المحيط بالأرض، والسماء عليها كالقبة.

---

(٥٤) أخرجه البخارى بمعناه – كتاب الأدب – باب هجاء المشركين – ٧٤/٤ عن البراء بن عازب،ولفظ البخارى اهجهم وهاجهم وجبريل معك .

(٥٥) تفسير ابن عطية ١٧٦/١ .

(٥٦) سورة الرعد / آية ٢ .

وهذا كله ضعيف، والحق أن لا عمد جملة، إذا العمد يحتـاج إلـى العمد ويتسلسل الأمر، فلابد من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى " ويمسك الماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه "(٥٧)، ونحو هـذا مـن الآيات" (٥٨)

****

ثانياً : اتجاهه في تفسيره إلى اللغة والنحو :

صورة أخرى نلمحها من تفسير المحرر الوجيز عن ابـن عطيـة، وهي صورة المفسر اللغوى النحوى، فهو يعرض اللفـظ القرآنـي عرضـاً عرفته العرب في معاني منطقها؛ لأن القرآن عربي، ومعانيه معـاني كـلام العرب .

كما أنه حين يعرض للقرآن من الوجهة الإعرابية لا يألو جهـدا فـي ذكر الوجوه الإعرابية في الآية وبيان المذاهب النحوية من بصريه وكوفيـة وغيرها.

١- في مجال اللغة : ينص ابن عطية في مقدمة تفسيره أنه سيسـير مـع الألفاظ، ويتتبع معانيها، ويتقيد بمدلولاتها، حتى لا يقع فيما وقع فيه بعـض المفسرين من الطفر أى تخطي الصواب إلى الخطأ في بيان معاني الألفاظ القرآنية .

---

(٥٧) سورة الحج / آية ٦٥ .

(٥٨) تفسير ابن عطية ٢٩١/٣ .

يقول ابن عطية : " وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر كما فى كثير من كتب المفسرين"(٥٩).

لقد وفى ابن عطية بهذا المنهج الذى وضعه لنفسه فى مقدمة تفسيره ، فنراه مثلا عند تفسير قوله تعالى " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فها خليفة "(٦٠) يبين آراء اللغويين فى اشتقاق لفظ الملائكة، ويستشهد بكلامهم فى هذا المقام فيقول : " والملائكة واحدها ملك، أصله ملاك على وزن مفعل من لاك إذا أرسل، وجمعه ملائكة على وزن مفاعلة . وقال قوم : أصل ملك مألك ،من ألك إذا أرسل ، ومنه قول عدى بن زيد :

أبلغ لنعمان عنى مألكا أنه قد طال حبسى وانتظارى .

واللغتان مسموعتان لاك وألك، قلبت فيه الهمزة بعد اللام فجاء وزنه (معفل) وجمعه ملائكة على وزن (معافلة).

وقال ابن كيسان : هو من ملك يملك، والهمزة فيه زائدة، كما زيدت فى شمأل من شمل، فوزنه فعأل ، ووزن جمعه فعائلة، وقد يأتى فى الشعر على أصله كما قال :

فلست لإنسى ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب

وأما فى الكلام فسهلت الهمزة، وألقيت حركتها على اللام أو على العين فى قول ابن كيسان، فقيل ملك، والهاء فى ملائكة لتأنيث الجموع غير حقيقى ،

---

(٥٩) تفسير ابن عطية ٣٤/١ .

(٦٠) سورة البقرة/آية ٣٠ .

وقيل هى للمبالغة كعلامة ونسابة، والأول أبين، وقال أبو عبيدة: الهمزة فى ملائكة مجتلبة لأن واحدها ملك.

قال القاضى أبو محمد عبد الحق : " فهذا الذى نحا إليه ابن كيسان"[٦١]

٢- وفى مجال النحو : يذكر ابن عطية مذاهب النحاة من البصريين والكوفيين فى إعراب كلمة (بسم) الواردة فى قوله تعالى " بسم الله الرحمن الرحيم " [٦٢] : فيقول : " والباء فى (بسم الله) متعلقة عند نحاة البصرة بسم تقديره : ابتدائى مستقر أو ثابت بسم الله ، وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره : ابتدأت بسم الله ، فبسم الله فى موضع رفع على مذهب البصريين ، وفى موضع نصب على مذهب الكوفيين، كذا أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيبويه أن الباء متعلقة باسم كما تقدم، وبسم الله فى موضع نصب تعلقاً بثابت أو مستقر بمنزلة فى الدار من قولك زيد فى الدار " [٦٣] .

****

<u>ثالثاً : توجيهه للقراءات المستعملة والشاذة :</u>

كان منهج ابن عطية فى تفسيره بالنسبة للقراءات أنه التزم منذ أول وهلة فى تفسيره إيراد القراءات المستعملة والشاذة، وتبين ما تحتمله هذه القراءات من المعانى، فنراه فى مقدمة تفسيره يقول : " وقصدت إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها، واعتمدت تبين المعانى وجميع محتملات الألفاظ

([٦١]) تفسير ابن عطية ١١٦/١ .

([٦٢]) سورة الفاتحة آية ١ .

([٦٣]) تفسير ابن عطية ٦١/١ .

" (٦٤)، ثم نراه فى مكان آخر من هذه المقدمة يوضح لنا القراءات المستعملة والشاذة، فيقول : "ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة، وبها يصلى؛لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شاذ القراءات فلا يُصلى بها،وذلك لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المروى منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه، وأما ما يؤثر عن أبى السمال ومن قاربه فلا يوثق به، وإنما أذكره فى هذا الكتاب لئلا يجهل " (٦٥) ومعنى ذلك أن ابن عطية يرى أن المعيار فى صحة القراءة أو شذوذها هو الإجماع، فمتى ثبتت القراءة بالإجماع، بحيث كان لها وجه فى العربية، ووافقت خط المصحف، وصح سندها فهى من القراءات المستعملة الصحيحة، والقراءات السبع كذلك عند ابن عطية،وحكمها أنه يعمل بها، ويقرأ بها فى الصلاة وغيرها، أما القراءات الشاذة فهى التى لم يجمع الناس عليها بأن اختل فيها شرط من الشروط الثلاثة التى أجمع العلماء على قبول القراءة بها، وحكم القراءة الشاذة أنه لا يصلى بها، وقد بين ابن عطية أن القراءات الشاذة قسمان : الأول : ما روى عن الصحابة والتابعين، فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه ، ومعنى ذلك أن ما روى من القراءات عن بعض الصحابة والتابعين إذا صح نقله عن الآحاد وكان له وجه فى العربية، ولكنه خالف خط

---

(٦٤) تفسير ابن عطية ١/٣٤.

(٦٥) تفسير ابن عطية ١/٤٨.

المصحف فإنه يعتبر من روايات الآحاد التى لا يثبت بها القرآن، ولا تصح القراءة بها فى الصلاة، إلا أنه يجوز العمل بها .

والثانى من الشاذ هو ما يؤثر عن أبى السمال ومن قاربه فلا يوثق به البتة ، ومعنى ذلك أنه مردود وأنه لا يجوز العمل به فى صلاة ولا فى غيرها، لأنه فاقد لشرط أو شرطين من الشروط التى لا تقبل القراءة إلا بها[٦٦].

ومن أمثلة القراءات التى وردت فى تفسير ابن عطية ما نراه عند تفسير قوله تعالى " أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون "[٦٧] حيث يقول : " وقرأ أبو عمر (يبغون) بالياء مفتوحة، (ترجعون) بالتاء مضمومة، وقرأ عاصم (يبغون) ، (يرجعون) بالياء معجمة من تحت فيهما، وقرأ الباقون بالتاء فيهما ووجوه هذه القراءات لا تخفى بأدنى تأمل "[٦٨].

<u>رابعاً: عدم الإسراف فى ذكر المسائل الفقهية فى تفسيره، وعدم تعصبه لمذهبه المالكى :</u>

لما كان تفسير ابن عطية ليس الغرض الأساسى منه استنباط الأحكام الفقهية كما هو الشأن فى كتب أحكام القرآن نجد ابن عطية لا يسرف فى ذكر المسائل الفقهية، ولا يشغل نفسه كثيرا بالانتصار لمذهبه المالكى والرد على المذاهب الأخرى كما هو منهج الكتب التى ألفت فى هذا المجال، وإن

---

(٦٦) انظر : منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ١٦٢،١٦١ .

(٦٧) سورة آل عمران / آية ٨٣.

(٦٨) تفسير ابن عطية ٤٦٦/١ .

كان فى بعض الأحيان يتطرق إلى ذكر أدلة الأحكام ومن ثم يرجح من آراء الفقهاء ما يرجح، ويرد منها ما يرد، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى " ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به " (٦٩) يرد ابن عطية ــ مستشهدا بكلام ابن المنذر النيسابورى ــ على أبى حنيفة فى أنه يجيز للزوج الذى انفرد بالضرار أن يأخذ الفدية من زوجته إذا خالعته، ويقرر ابن عطية ــ تبعا لابن المنذر ــ أن كلام أبى حنيفة فى هذه المسألة مخالف لظاهر كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيقول : وأما إذا انفرد الزوج بالفساد فلا أعلم أحداً يجيز له الفدية إلا ما روى عن أبى حنيفة أنه قال : إذا جاء الظلم والنشوز من قبله فخالعته فهو جائز ماض ، وهو آثم، لا يحل ما صنع، ولا يرد ما أخذ ، قال ابن المنذر : وهذا خلاف ظاهر كتاب الله تعالى وخلاف سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ، ولو قيل لأحد : اجهد نفسك فى طلب الخطأ ، ما وجد أمراً أعظم من أن ينطق القرآن بتحريم شئ فيخله هو ويجيزه " (٧٠).

وبعد : فهذا هو المنهج الذى سار عليه ابن عطية فى تفسيره (المحرر الوجيز) ، والآن ننتقل إلى المبحث الثالث لنتعرف على ما أثاره تفسير (المحرر الوجيز) من نشاط عقلى.

(٦٩) سورة البقرة / آية ٢٢٩ .

(٧٠) تفسير ابن عطية ٣٠٧/١ .

المبحث الثالث : ما أثاره تفسير (المحرر الوجيز) من نشاط فكرى

همنا فى هذا المبحث أمران : الأول :آراء النقاد فى تفسير ابن عطية، والأمر الثانى : تأثر المفسرين المغاربة بتفسير ابن عطية منهجا وموضوعا.

أولا: آراء النقاد فى تفسير المحرر الوجيز لابن عطية :

تفسير ابن عطية المسمى بـ (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) تفسير له قيمته العالية بين كتب التفسير، وقد شهد له غير واحد من العلماء ، فمثلا يقول ابن عميرة الضبى المتوفى سنة ٥٩٩هـ : " ألف ابن عطية فى التفسير كتابا ضخما أربى فيه على كل متقدم"[٧١] ، و يقول ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٨هـ :" وتأليفه فى التفسير جليل الفائدة ،كتبه الناس كثيرا ،وسمعوه منه وأخذوه عنه "[٧٢]، ويقول علىّ بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥هـ : " ولابن عطية الغرناطى فى تفسير القرآن الكتاب الكبير الذى اشتهر و طار فى الغرب والشرق، و صاحبه من فضلاء المائة السادسة" [٧٣] ، و نجد أبا حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ فى مقدمة تفسيره (البحر المحيط) يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية و تفسير الزمخشرى فيقول :" وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص"[٧٤]، وذكر لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ "أن ابن عطية ألف كتابا فى التفسير يسمى بالوجيز فأحسن فيه وأبدع ، و طار لحسن

(٧١) بغية الملتمس ص ٣٧٦ .
(٧٢) المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى ص ٢٦١ .
(٧٣) نفح الطيب ١٧٩/٣ .
(٧٤) البحر المحيط ١٠/١ ط. دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .

نيته كل مطار"[٧٥]ثم جاء بعد لسان الدين بن الخطيب من ترجم لابن عطية ، فاقتبس من ابن الخطيب عبارته السابقة فى تفسير ابن عطية مثل ابن فرحون المالكى المتوفى سنة ٧٩٩هـ فى الديباج المذهب "[٧٦] والداودى المتوفى سنة ٩٤٥ هـ فى طبقات المفسرين [٧٧]، ويقول ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ عن تفسير ابن عطية : " إن مؤلفه لخضه من كتب التفاسير بالمنقول ، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى[٧٨]، ويثنى جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ على هذا التفسير فيقول : " لقد أحسن ابن عطية فى تفسيره حتى صار كتابه أصدق شاهد له بإمامته فى العربية و غيرها "[٧٩].

أما الإمام ابن تيمية المتوفى ٧٢٨ هـ فقد عقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى فى فتاواه فقال : " وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى، وأصح نقلا وبحثا، وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير (٨٠)، كما عقد مثل هذه المقارنة فى مقدمته

---

(٧٥) الإحاطة فى أخبار غرناطة ٥٣٩/٣.

(٧٦) الديباج المذهب ٧٥/٢ .

(٧٧) طبقات المفسرين للداودى ص ١٠٩ تحقيق على محمد عمر ـ مكتب وهبة بالقاهرة .

(٧٨) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ ـ الطبعة الأولى ـ دار القلم ، بيروت ١٩٧٨ .

(٧٩) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ص ٢٩٥ ـ مطبعة السعادة

(٨٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨٨/١٣ .

فى أصول التفسير فيقول : " وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى، ولو ذكر كلام السلف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى – وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا – ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة " [٨١].

ثانياً : تأثر المفسرين المغاربة بتفسير ابن عطية منهجا وموضوعا :

كان لتفسير ابن عطية أثر كبير فيمن جاء بعده من المفسرين المغاربة، وقد وضح هذا الأثر فى كتب هؤلاء المفسرين ، وكان تأثرهم بتفسير ابن عطية له مظهران :

المظهر الأول : أنهم فى تفاسيرهم اهتدوا بهدى ابن عطية فى منهجه التفسيرى، واقتفوا أثره فى الطابع العام لتفسيره ، وانتفعوا بطريقته فى هذا التفسير انتفاعاً عظيماً، وهذا هو تأثرهم بتفسير ابن عطية من الناحية المنهجية.

والمظهر الثانى : أنهم نقلوا فى كتبهم كثيرا من نصوص هذا التفسير ، وتناولوا كلام ابن عطية ــ تارة ــ بالشرح والتحليل

(٨١) مقدمة فى أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٣، وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٦١/١٣

والتعليق،وطورا بالمناقشة والرد والتعقيب، وهذا هو تأثرهم بتفسير ابن عطية من الناحية الموضوعية (٨٢).

ومن أبرز المفسرين المغاربة الذين تأثروا بتفسير ابن عطية منهجا وموضوعا:

١- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ هـ فى كتابه (الجامع لأحكام القرآن) : فقد تأثر بتفسير ابن عطية منهجا وموضوعا :

أما تأثره من الناحية المنهجية ، فقد كان منهج القرطبى التفسيرى مستمداً فى الغالب من منهج ابن عطية فى تفسيره، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله : " فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها ــ أى تفاسير المنقول ــ وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحى، وتبعه القرطبى فى تلك الطريقة على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور " (٨٣).

وأما تأثره به من حيث الموضوع، فإن ذلك يتمثل فى ناحيتين :

الناحية الأولى : نقل القرطبى لكثير من نصوص ابن عطية فى تفسيره .

---

(٨٢) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٢٧٠ .

(٨٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ . .

الناحية الثانية : تعليقات وتعقيبات القرطبى على ابن عطية [٨٤].

٢- أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ فى كتابه (البحر المحيط) :

فقد كان تفسير ابن عطية فى مقدمة التفاسير التى أفاد منها ، وانتفع بها فى تفسيره انتفاعا كبيراً، وتأثر بها تأثرا بالغا، وقد نوه أبو حيان فى مقدمة تفسيره بالزمخشرى وابن عطية باعتبارهما علمين من أعلام التفسير، وإمامين من كبار أئمته ، ووصفهما بأنهما أجل من صنف فى علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير، وأثنى على تفسيريهما ثناء طيبا، وأبان أنه تأثر بهما تأثرا كبيرا، وأنه قام فى تفسيره بانتقاد هذين الكتابين والتعقيب عليهما، ثم عقد مقارنة بين هذين الكتابين، فقال : " وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص . وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص " [٨٥].

أما تأثر أبى حيان بابن عطية من الناحية المنهجية فيتمثل فى اهتمامه بالمدلول اللغوى، والإعراب النحوى،وجمع القراءات المستعملة والشاذة، وتوجيه هذه القراءات، واستبعاد التفسير الرمزى، وعدم الاستطراد فى ذكر المسائل الفقهية.

وأما تأثره به من الناحية الموضوعية فقد تناول كلام ابن عطية تارة بالشرح والتحليل والتعليق، وطورا بالمناقشة والرد والتعقيب، وكانت ردود أبى حيان وتعقيباته ــ فى الغالب ــ ترجع إلى النحو والقراءات، وقد أثارت هذه الردود وتلك التعقيبات نشاطا علميا ملحوظا، فقام أحد تلاميذ أبى حيان

---

(٨٤) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٢٧٢ . .

(٨٥) انظر البحر المحيط ١/ ١٠، ٩

وهو تاج الدين أحمد بن عبد القادر بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ هـ بجمع بتعقيبات أبى حيان على ابن عطية والزمخشرى فى كتاب أسماه (الدر اللقيط من البحر المحيط) وهو مطبوع على هامش تفسير البحر المحيط، كما قام أبو زكريا يحيى بن محمد الشاوى الجزائرى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ بتأليف كتاب فى هذا الموضوع، وهو الكتاب المعروف باسم (المحاكمات بين أبى حيان وابن عطية والزمخشرى) وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بمكتبة الأزهر برقم ٢٢٦٤١ / ٥٣٩ .

٣- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى الجزائرى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ فى كتابه (الجواهر الحسان فى تفسير القرآن) :

فقد قام الثعالبى فى كتابه هذا باختصار تفسير ابن عطية، ثم أضاف إليه بعض الفوائد التى أخذها من كتب المفسرين السابقين وغيرهم، ويوضح الثعالبى فى مقدمة تفسيره – طريقته فى هذا التفسير، فيقول :" فإنى جمعت لنفسى ولك فى هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عينى وعينك فى الدارين، فقد ضمنته – بحمد الله – المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة ، وثقات أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين، ومعدود فى المحققين، وكل ما نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت، وعلى لفظه عولت، ولم أنقل شيئا من

ذلك بالمعنى، خوف الوقوع فى الزلل، وإنما هى عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه " (٨٦).

وقد وضع الثعالبى لنفسه ــ وهو يختصر تفسير ابن عطية ــ منهجاً يقوم فى أغلب الأحيان على حذف الشواهد الشعرية، والوجــوه النحويــة ، والإقلال من ذكر القراءات، والاكتفاء بقول أو قولين من الأقوال الكثيرة التى يذكرها ابن عطية فى تفسير الآية، وكان الثعالبى يولى اهتماما بالغا بــذكر آراء ابن عطية الخاصة فى التفسير، تلك التى كانت تذكر عادة فى تفسير ابن عطية مصدرة بعبارة قال الفقيه أبو محمد، وما أشبه ذلك من العبارات (٨٧).

أما تأثر الثعالبى بتفسير ابن عطية فقد كان تفسيره بصرف النظــر عن الزيادات التى أضافها صورة مصغرة من تفسير ابن عطية فى منهجــه وموضوعه ، وليس معنى ذلك أن الثعالبى كانت تنحصر مهمته فى النقل من تفسير ابن عطية فحسب، بل كان له إلى جانب ذلك جهود موفقة وإن كانــت قليلة فى التعليق على هذا التفسير والتعقيب عليه، فمثلا يهتم الثعالبى بتخريج الأحاديث التى وردت فى تفسير ابن عطية وكأنه بذلك يريد أن يسد الــنقص فى تفسير ابن عطية فى هذا المجال، وفى بعض الأحيان كان الثعالبى يقــوم بالتعليق على كلام ابن عطية بما يزيده بيانا ووضوحا، كما كان يعنى كثيرا بترجيح أو تضعيف بعض الأقوال التى يذكرها ابن عطية فى تفسيره دون أن يُعقب عليها بشئ ، وكان الثعالبى فى بعض المواطن يتعقب ابن عطية ويرد على بعض آرائه فى التفسير، وفى بعض المواطن الأخرى يقوم بالدفاع عن

---

(٨٦) الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى ١/٣ط . منشورات موسسة الأعلمى للمطبوعات ،بيروت ــ لبنان .

(٨٧) منهج بن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ٢٩٤ .

آراء ابن عطية، وبالجملة فإن تفسير ابن عطية قد جذب انتباه الثعالبى إليه، فوجه اهتمامه إلى اختصاره، والتعليق على ما جاء فيه من أقوال وآراء [٨٨].

****

هذا ولا يزال تفسير ابن عطية إلى اليوم مصدراً مهمــاً مــن مصــادر التفسير التى لا غنى للباحثين والمتخصصين عنها، فهو ــ بــلا شــك ــ يمثــل مرحلة من المراحل التى مر بها التفسير فى تاريخه الطويل، وكــان مــن أبــرز الخصائص التى يمثلها تفسير ابن عطية هو الجمع بين المأثور والرأى، والاهتمام بالنواحى اللغوية والإعرابية ، والعناية التامة بجمع القراءات وتوجيهها .

****

(٨٨) انظر : المرجع السابق ص ٢٩٤ ــ ٢٩٩ .